وهل الإيمان إلا الحب ؟

(٧)

حب العلم و العلماء

الدكتور
محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٧
e-mail: almaktabi@mail.sy

وَوَصَلَ الرَّكْبُ إلى مكانٍ فيهِ بَعضُ الأشجَارِ ونَبْعَةُ ماءٍ ، فَأَوْقَفُوا البَاصَ ، ونَزلُوا لِيَرْتَاحُوا قليلاً ، ثُمَّ قامَ الأُستَاذُ (نُورُ الهُدَىٰ) لِيُهَيِّئَ الطَّعامَ للجَمِيْعِ ، لمَّا رآهُ الشَّبَابُ انطَلَقُوا إليهِ ، يُريدُونَ أَنْ لا يَقُومَ بِأَيِّ عَمَلٍ ، فَهُوَ أُسْتَاذُهُمْ وَمُرَبِّيْهِمْ ، لكن الأُستاذ أَبى إلاَّ التَّعاوُنَ ، وقصَّ عليهم قِصَّةَ الرَّسُولِ ﷺ مَعَ بَعْضِ أصحابِهِ حيثُ قالَ أحدُهُمْ: عَليَّ ذَبْحُ الشَّاةِ ، وقالَ الثَّاني: وعَلَيَّ سَلْخُها ، وقالَ الثَّالِثُ: وعَلَيَّ طَبْخُها ، فقَالَ رسولُ الله ﷺ: «وَعَلَيَّ جَمعُ الحَطَبِ».

ورَاحَ كُلُّ واحدٍ مِنْهُمْ يَقُومُ بِعَمَلٍ ما ، حتَّى الشَّيخُ (يحيىٰ) والشَّيخُ (مصطفى) آهٍ ما أجملَ

التَّعاوُنَ إذَا كَانَ على الأُمُورِ الَّتِي تُرْضِي الله ، مِصْدَاقُ ذلكَ قولُهُ تَعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

وجَهَّزَ (حُسينُ) إبريقَ الشَّايِ ، وَوَضعَهُ عَلىٰ الحَطَبِ ، واجْتَمَعُوا على الطَّعَامِ ، وقالَ الأُستَاذُ (زَينُ العابدين): كُلُّوا بِاسْمِ اللهِ، وعلى بَرَكَةِ اللهِ.

وبعدَ الأَكْلِ شَرِبُوا الشَّايَ... وجَلَسُوا إلى جِوارِ نَبعِ المَاءِ.. فَقَالَ الشَّيخُ (مُصطفى): والآنَ سنتَذاكَرُ حَولَ مسألَةِ حُبِّ العلمِ وبيانِ فَضْلِهِ.

فَضْلُ العِلمِ.. وقدرُهُ في الدُّنيا والآخرةِ

وراحَ الأُستاذُ (نُورُ الهُدى) يَتحدَّثُ قَائِلاً:

هُنَاكَ آياتٌ كثيرةٌ تَتحدَّثُ عن هذا الموضوعِ ، مِنْ ذلكَ أنَّ اللهَ وَصَفَ ذاتَهُ بالعِلْمِ ،

وَفِي ذلكَ دَليلٌ واضِحٌ عَلَى فَضْلِ العِلمِ ومَكانَتِهِ ، قالَ تَعالى:

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ ﴾ [الحشر: ٢٢].

وقَرنَ سُبحانَهُ وتعالى شَهادَةَ العُلماءِ بِشَهادَةِ المَلائِكَةِ ، وشَهادَتِهِ سُبحانَهُ ، وفي ذلكَ دليلٌ بيِّنٌ على قِيْمَةِ العِلْمِ وَالعُلَمَاءِ ، قال اللهُ تعالى:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ ﴾ [آل عمران: ١٨].

وَهُناكَ آياتٌ قُرآنِيَّةٌ يَمتَنُّ اللهُ بها على رَسُولِهِ ﷺ أَنْ آتاهُ العِلْمَ ، مِصْداقُ ذلِكَ قَوْلُه تَعالى:

﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا

﴿لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾

[النساء: ١١٣].

بَلْ إِنَّ اللهَ يَطلبُ مِنَ الرَّسولِ ﷺ أَنْ يسأَلَهُ الاستِزَادَةَ مِنَ العلْمِ ، قالَ اللهُ تعالى:

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

بَلْ إِنَّ البَيانَ الإلهيَّ يَحصُرُ خَشْيَتَهُ بالعُلمَاءِ ، وأمَّا الجَهلَةُ فَحتَّى لَوْ عَبَدُوا اللهَ مِئاتِ السَّنَواتِ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَصِلُوا إلى دَرَجَةِ الخَشْيَةِ للهِ سبحانَهُ ، مِصْدَاقُ ذلكَ قولُهُ تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وبالتَّالِي فَسببُ خَشْيَةِ العُلَماءِ هُوَ العِلْمُ وحدَهُ.

لذلكَ كُلُّهُ جاءَتِ الآياتُ القُرآنِيَّةُ لِتُؤَكِّدَ على رَفْعِ دَرَجَاتِ العلْمِ وَالعُلَمَاءِ ، حتَّى لو كانَ

غَيرُهُمْ أكثرَ مالاً وَجَاهاً ، مِصداقُ ذلكَ قولُهُ تَعالى:

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١١].

ومَا أكثَرَ الآياتِ القُرآنِيَّة الَّتي تَدُلُّ على شَرَفِ العِلمِ ، ويَكفِينَا قَولُ اللهِ تَعالى وَهُوَ يُبَيِّنُ ذلكَ بِأُسلُوبِ الاسْتِفهَامِ:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ ﴾

[الزمر: ٩].

أَجَلْ! لا يستوون أَبَدَاً ـ قالها الشَّيخُ (مُصطفَى) ـ ثمَّ تابَعَ:

لذلكَ جاءَتْ الأَحاديثُ النَّبَوِيَّةُ الكَثِيرَةُ ، والتي تَشْرَحُ الآياتِ القُرآنِيَةَ ، مِنْ ذلكَ قَوْلُ رسولِ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيْقاً يَلتمسُ فيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيْقاً إلى الجنَّةِ ، وإنَّ

المَلائكةَ لتَضَعُ أجنِحَتَها لِطالبِ العِلمِ رِضاً بما يَصْنَعُ ، وإنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغفِرُ لَهُ مَنْ في السَّموَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ ، حتَّى الحِيتَانُ فِي المَاءِ ، وفَضْلُ العَالِمِ على العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ على سائرِ الكَواكِبِ، وإنَّ العُلماءَ وَرَثَةُ الأَنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِيناراً وَلا دِرْهَماً ، إنَّما ورَّثُوا العِلمَ ، فَمَنْ أخذَهُ أَخَذ بِحظٍّ وافِرٍ».

قالَ الشَّاب (مُعتز): وأنَا أحفظُ حديثاً نَبويّاً أرْوِيهِ ، فأشارَ إليه الشَّيخُ (يحيى) بِالمُوافَقَةِ..

فَقالَ: في سُنَنِ التِّرمذيِّ قولُ رسولِ الله ﷺ: «ما مِنْ رَجُلٍ يَسْلُكُ طَرِيْقاً يَلتَمِسُ فيهِ عِلْماً إلاّ سهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقاً إلى الجنَّةِ ، ومَنْ أَبطأَ بهِ عَمَلُهُ لَم يُسرِعْ بِهِ حَسبُه».

فَقالَ الشَّيخُ (مُصطفى): أحسَنْتَ يا حافِظَ كِتابِ اللهِ ، ومَنْ يحفَظُ حديثاً آخرَ؟

فتقدَّمَ الشَّابُّ (حسَن) وقَالَ: وأنا أحفَظُ حَديثاً نبويّاً في فضلِ العِلمِ وأَهْلِهِ ، فَفِي مُسنَدِ الإمامِ أحمد قولُ رسولِ الله ﷺ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يَجْتَمِعُونَ في بَيْتٍ مِنْ بُيوتِ اللهِ ، يتعَلَّمُونَ القُرآنَ ويَتَدارَسُونَهُ بينَهم إلاّ حفَّتهُمُ المَلائِكَةُ وغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ، وتَنَزَّلتْ عَليهم السَّكينَةُ ، وذَكَرهم اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ».

حتَّى بعدَ مَوتِ الإنسانِ يستفيدُ الميتُ من عِلمِهِ الذي قَدَّمَهُ للنَّاسِ ، سواءً كانَ ذلكَ عَنْ طَرِيْقِ كِتابٍ كَتَبَهُ ، أو تَسجيلٍ على شريطٍ أو... المُهِمُّ أَن يستفيدَ النَّاسُ منْ عِلمِهِ ، فبذلكَ يَكْتُبُ اللهُ لَهُ الأجرَ في حَياتِهِ وَبعدَ مَوْتِهِ.

قالَ الأُستاذُ: (نُورُ الهُدَىٰ): صدَقْتَ يا حُسَيْن، ومِصْداقُ قَوْلِكَ هذا حَدِيثُ رسول الله ﷺ ، والذي في سُنَنِ النَّسائيِّ ، وصَحيحِ

مُسْلِمٍ ، وهُوَ: «إذَا ماتَ الإنسانُ انقطَعَ عَمَلُهُ إلاّ مِنْ ثَلاَثَة: مِنْ صَدَقَةٍ جاريةٍ ، أو عِلمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ بَعْدَ مَوتِهِ ، أو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدعُو لَهُ».

وذلكَ لأنَّ الخَطَّ الإسلاميَّ يتلخَّصُ بِما قَالَهُ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ دَلَّ على خَيرٍ فَلهُ مِثلُ أَجْرِ فاعِلِه».

وقَولُهُ صَلواتُ اللهِ عليهِ: «الحِكْمَةُ تَزيدُ الشَّريفَ شَرَفاً ، وترفَعُ المَملوكَ حتَّى تُجلِسَهُ مَجالِسَ المُلوكِ». ورَحِمَ اللهُ الشَّاعِرَ حينَ قالَ:

العِلمُ يَنهَضُ بالخَسِيسِ إلى العُلاَ
والجَهْلُ يَقعُدُ بالفَتَى المَنْسُوب

أَيُّهُما أَفضَلُ: العِلْمُ أَم العِبَادَةُ؟!

وَوَقَفَ الأُستاذُ (زَينُ العابدين) وكأَنَّهُ يُريدُ التَّحدُّثَ بعدَ طُولِ انتظارٍ!! فَسَكَتَ الجَميعُ ،

وقالَ الشَّيخُ (مُصطفى): تَفَضَّلْ يا أُستَاذُ فَكُلُّنا آذانٌ صَاغِيَةٌ ، ورَاحَ الأُستاذُ يتحدَّثُ قَائِلاً:

ويظُنُّ البَعضُ أنَّ الإسلامَ يهتَمُّ فَقَطْ بالاعتِكَافِ في المَساجِدِ ، أو بِقِراءَةِ آياتٍ مِنَ القُرآنِ الكَريمِ ، أو أوْرَادٍ مُعَيَّنةٍ.

وجَهِلُوا - ولِلأَسَفِ - أنَّ الإسلامَ يُفضِّلُ العِلْمَ على العِبادَةِ ، والدَّلِيْلُ على ذلكَ قَولُ رسولِ اللهِ ﷺ:

«قَلِيْلُ العِلمِ خَيرٌ مِن كَثيرِ العِبادَةِ ، وكَفَىٰ بالمَرْءِ عِلْماً إذا عَبَدَ اللهَ ، وكَفَىٰ بِالمَرءِ جَهْلاً إذا عَجِبَ بِرَأْيِهِ ، إنَّما النَّاسُ رَجُلاَنِ: عَالِمٌ وجاهِلٌ ، فَلا تُمارِ العَالِمَ ولا تُحاوِرِ الجَاهِلَ».

فَقَالَ الشَّيخُ (يَحيى): أحسنتَ ، ويقُولُ رسولُ الله ﷺ في هَذا الصَّدَدِ:

«مَنْ أدَّىٰ الفَريضَةَ ، وعلَّمَ النَّاسَ الخَيرَ ،

كانَ فَضْلُه عَلَى المُجَاهِدِ العَابِدِ كَفَضْلِي على أدْنَاكُمْ رَجُلاً ، ومَنْ بَلَغَهُ عَنِ اللهِ فَضْلٌ فأخَذَ بذلكَ الفَضْل الذي بَلَغَهُ ، أعطَاهُ اللهُ ما بَلَغَهُ وإنْ كانَ الذي حَدَّثَهُ كَاذِباً».

وقالَ الطَّالبُ الذَّكِيُّ (حسن): وأنا أحفظُ حَدِيثاً نَبويّاً في تَفْضِيْلِ العِلمِ عَلى العِبادَةِ ، قالَ رسولُ الله ﷺ:

«يبْعَثُ اللهُ العَالِمَ والعَابِدَ ، فيُقالُ للعابِدِ: ادْخُلِ الجَنَّةَ ، ويُقَالُ لِلعَالِمِ: اشْفَعْ لِلنَّاسِ كَمَا أَحْسَنْتَ أدَبَهُمْ».

وعِنْدَما فَهِمَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي اللهُ عنهُ ذلكَ كُلَّهُ ، كانَ يَقُولُ لِمَنْ حَوْلَهُ: لأَنْ أَجْلِسَ ساعةً فَأُفَقَّهَ في دِيني أَحَبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أُحْيِي لَيلةً إلى الصَّباحِ. ولَقدْ أدْرَكَ هَذِهِ المَعَانِي عُلماءُ الأُمَّةِ فَكَانُوا يُفْصِحُونَ عَنْ هذا التَّفْصِيْل في مَواطِن

كثيرةٍ ، لِذلكَ رَوَىٰ ابنُ وَهْبٍ قالَ: كُنْتُ عِندَ مالكِ بن أنسٍ فَجَاءَتْ صَلاةُ الظُّهْرِ أو العَصْرِ وأنا أَقْرَأُ عليه وأَنْظُرُ في العِلمِ بَيْنَ يَدَيْهِ فَجمعْتُ كُتُبِي وَقُمْتُ لأَرْكَعَ ، فقالَ لِي مالك: ما هذا؟

قلتُ: أقومُ للصَّلاةِ ، قالَ: إنَّ هذا لَعَجبٌ ، فمَا الذي قُمْتَ إليه بِأَفْضَلِ مِنَ الذي كُنْتَ فيهِ ، إذا صَحَّتِ النِّيَّةُ فيه!!

وقالَ الطَّالِبُ المُجْتَهِدُ (مُهتدي): بَلْ إنَّ الشَّريعةَ الإسلاميَّةَ تُفَضِّلُ العلماءَ على الشُّهداءِ، مِصْدَاقُ ذلكَ قَولُ رسول الله ﷺ: «يُوزَنُ يومَ القِيَامةِ مِدَادُ العُلماءِ، ودَمُ الشُّهَداءِ ، فيَرْجِحُ مِدَادُ العُلماءِ على دَمِ الشُّهداء».

وقولُهُ أيضاً: «للأنبياءِ على العُلَماءِ فَضْلُ دَرَجَتَيْنِ ، وللعُلَمَاء على الشُّهَداءِ فَضْلُ دَرَجَةٍ».

ما هُوَ أساسُ العِلْمِ؟!

وقال الأُستاذُ (نُورُ الهُدىٰ): وأَسَاسُ العِلمِ الإخلاصُ، أمَّا الرِّيَاء والسُّمْعَةُ فإنَّها تذْهَبُ بثَوابِ العِلمِ، وبالتَّالي لا يَسْتَفِيْدُ الإنسانُ مِنَ العِلْمِ، لا فِي الدُّنيا ولا فِي الآخرةِ، مِصداقُ ذلكَ قولُ رسولِ الله ﷺ: «لا تَعَلَّمُوا العِلمَ لِتُبَاهُوا بهِ العُلماءَ، وتُمارُوا بِهِ السُّفَهاء، ولا لِتَخيروا ـ أي تصدَّروا ـ بهِ المَجَالِسَ، فمَنْ فَعَلَ ذلكَ فالنَّارُ النَّارُ».

وقَولُهُ أيْضاً: «مَنْ تعلَّمَ عِلْمَاً يبتغِي بهِ وجهَ اللهِ، لا يتعلَّمهُ إلاّ ليُصيبَ بهِ غَرَضاً مِنَ الدُّنيا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّة» والعَرْفُ هُوَ الرَّائِحَةُ.

فَقَالَ الشَّيخُ (مُصطفى): وكَذلكَ فيجبُ عَلَىٰ

العَالِمِ أَنْ يَنْشُرَ عِلْمَهُ ولا يَكْتُمَ منهُ شَيئاً ، وقد قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ دَعَا إلى هُدىً كانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجورِ مَنْ تَبِعَهُ ، لا يَنْقصُ ذَلِكَ مِن أُجُورِهِمْ شَيئاً ، ومَنْ دَعَا إلى ضَلالةٍ كانَ عَليه مِنَ الإثْمِ مِثلُ آثامِ مَنْ تَبِعَهُ ، لا يَنقصُ ذَلِك من آثَامِهِمْ شَيئاً».

ورَتَّلَ الشَّابُّ (حَسَن) قَولَ اللهِ تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٠].

مَرْحَباً بِطَالِبِ العِلْمِ

والْتفَتَ الشَّيخُ (يحيى) إلى الشَّبابِ قائِلاً: نَصِيْحَتِي لَكُمْ أَنْ تَسْتَغِلُّوا كُلَّ دقائِقِ حَياتِكُمْ

وتتعلَّمُوا ما يُفِيدُ ، وعلِّمُوا النَّاسَ ، ولا تُضَيِّعُوا أوقاتَكُمْ سُدًى ، واعْلَمُوا أنَّ في ذلكَ عبادَةٌ وشَرَفٌ ، وإليكُمْ بِشَارَةُ رسولِ الله ﷺ:

عن صَفْوَانَ قالَ: أتيتُ النَّبيَّ ﷺ وهُوَ في المَسجدِ مُتَّكِئٌ على بُرْدٍ لَهُ أَحْمرَ ، فقُلْتُ لَهُ: يا رسول الله ، إنِّي جِئْتُ أطلُبُ العِلْمَ ، فقالَ: «مَرْحباً بطالِبِ العِلْمِ ، إنَّ طالِبَ العِلْمِ تَحُفُّهُ المَلائِكَةُ بأجْنِحَتِها ، ثُمَّ يَركَبُ بَعضُهُمْ بَعْضاً حتَّى يبلُغُوا السَّماءَ الدُّنيا مِنْ مَحبَّتِهِم لِما يَطْلُبُ».

اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا ما ينفَعُنا ، وانفَعْنَا بِمَا عَلَمْتَنا ، وزِدْنَا عِلْماً يا أرْحَمَ الرَّاحِمينَ.

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين